الأميرُ، رجلًا لرجلٍ

ركضَ حيوانٌ صغيرٌ يشبهُ القطةَ في الطريقِ المؤدّي إلى البوابةِ الشماليةِ لقريةِ مشّى، ركضَ على أقدامهِ الخلفيةِ فقط بينما حملَ بأقدامهِ الأماميةِ صندوقًا أسود صغيرًا، تماشى في لونهِ مع لونِ المنطقةِ المحيطةِ بعيني الحيوان. وظلَّ يسرعُ دون أن يلاحظهُ أحدٌ، حتى مرَّ بأولِ خمسةِ الجنودِ المتمركزين بالقربِ مِن البوابةِ. نظرَ لحظةً إلى الجنديّ وهو يشعلُ النيرانَ في أحدِ البيوتِ، ثم أكملَ ركضهُ المضحكَ المصاحبَ بعدمِ الاتزان.

كان أربعة الجنودِ المتبقين متمركزين كالآتي: اثنان وقفا على بعدِ عدةِ أمتارٍ مِن البوابةِ، واثنان على السورِ الخشبيّ فوقَ البوابةِ.

لاحظَ أحدُ الاثنين الذين كانا على السورِ الحيوانَ، فبدأ الحديثُ:

- «ما هذا الشيءُ؟ انظر إليهما لا يريانه وهو يمرُّ».

ضحكَ الجنديُّ مِن زميليهِ الذين شُغلا بما يحدُثُ حولهما ولمْ يلاحظا تقدُّمَ الحيوانِ، وجذبَ انتباهَ زميلهِ الواقفِ على السورِ، فشاركهُ الضحكَ وقالَ:

- «على ما أظنُّ -إن كان النظرُ قد أسعفني- هذا راكون».

- «ما الذي يحملهُ؟».

- «لا أعلمُ. في الغالبِ سرقَ بعضَ الطعامِ ويريدُ الهربَ بالغنيمةِ، ولكن لينسَ؛ لن تُفتحَ البوابةُ».

وصلَ الراكون إلى البوابةِ، فوضعَ الصندوقَ الأسودَ عندها، ثم ضغطَ قطعةً خشبيةً برزت مِن إحدى جوانبهِ، وفي الحالِ انطلقَ عائدًا على أربع أقدامهِ.

ضحكَ أحدُ الجنديين على السورِ وقال: «ها هو يعودُ مِن حيث أتى!».

بعدَ ثوانٍ من انطلاقِ الراكونِ عائدًا، بدأ الصندوقُ الأسودُ في الاهتزازِ قليلًا، وفجأةً بعد صوتٍ أشبهَ بالصاعقةِ، شعرَ الجنودُ على البوابةِ بهزةٍ شديدةٍ، وبدأ السورُ في السقوطِ بهم وسطَ ارتفاعِ دخان؛ لقد فجَّرَ الصندوقُ البوابةَ؛ لقد كان قنبلةً!

في ذات لحظةِ الانفجارِ، انطلقت دنيا بخنجرها، فمرَّت بالجنودِ الثلاثةِ الباقين، وأسقطتهم واحدًا تلو الآخر، مستغلةً تفاجأهم مِن الانفجارِ. وبسقوطِ آخِرهم، وقفت دنيا تنتظرُ الراكون، حتى وصلَ إليها، فنزلت إلى ركبتيها ومدَّت إليهِ يدها بالبندقِ وهي تبتسمُ قائلةً: «أحسنتَ يا ألْبِرْت! ستظلُّ دائمًا سلاحي السريَّ».

أعادَ الحيوانُ الابتسامةَ، وبدأ يلتهمُ جائزتهُ سريعًا.

بعد دقائق، قادَ سامح العربةَ بالطريقِ؛ فلمْ يعدْ هناكَ عائقٌ أمامَ خروجهم مِن القريةِ.

- «حقًا يا لكثرةِ المشاكلِ التي سببتها لي أيها الأمير، ولكن عليَّ أن أعترفَ أنكَ لستَ كما يُشاعُ عنكَ».

أجابَ ليون: «وأنا أستطيعُ قولَ نفسِ الشيءِ عنكَ».

- «لستَ الجبانَ المستخذي كما يدَّعون».

- «لستَ القائدَ العظيمَ كما يدَّعون».

ابتسمَ قاسم الجراح ثانيةً، وأنزلَ سيفهُ إلى مستوى صدرهِ، وأمسكهُ بيديهِ الاثنتين، ثم قالَ: «لا أعلمُ كيفَ أقنعتَ رجالي بأنكَ ميّتٌ، ولا أعلمُ كيف هربتَ مِن إعدامكَ هكذا، ولكني أعلمُ أن نهايتكَ ستكونُ هنا، على يدي! دُورَنْدَال -سيفي- سيهتمُّ برقبتكَ كما اهتمَّ برقبةِ أبيكَ!».

أمسكَ ليون بسيفهِ بقبضةٍ قويةٍ ثابتةٍ، ولمْ يُضِفْ كلمةً.

ظلَّ خالد ممسكًا بالحصانِ يراقبُ مُنقذهُ وهو على وشكِ دخولِ النزالِ، وأخذَ يدعو أن ينتهي كلُّ شيءٍ على خيرٍ. وأخذت كلماتُ الدعاءِ تتسارعُ، مع بدايةِ تقدّمِ قاسم البطيءِ بخطواتٍ قصيرةٍ ثابتةٍ.

- «لمجدِ الإمبراطوريةِ!».

رفعَ قاسم سيفهُ دورندال، فأخذَ يبرقُ بعروقهِ الخضراء، ثم تسارعت خطواتهُ حتى صارَ ليون أمامهُ مباشرةً، فنزلَ بدورندال بقوةٍ هائلةٍ اعترضها ليون بسيفهِ العاديّ.

ثبتَ ليون بصلابةٍ أمامَ قاسم، فابتسمَ الأخيرُ وقالَ: «ما الذي تحاربُ لأجلهِ أيها الأمير؟ أظنُّ أن كلَّ شيءٍ انتهى منذ ذلكَ اليومِ، بالقصرِ».

لمْ يفقدْ ليون تركيزهُ، بل جمعَ القوةَ الكافيةَ ليردَّ دورندال ويسددَ ضربةً سريعةً بسيفهِ الأخفّ وزنًا، فأوشكَ أن يصيبَ وجهَ قاسم مباشرةً، لولا أن سيفهُ مرَّ ولمْ يتركْ إلا جرحًا سطحيًّا.

عادَ قاسم ليباشرَ بالهجومِ وهو يقولُ: «لا بأسَ بمهاراتكَ؛ يا ليتكَ كنتَ بأرضِ المعركةِ مع أبيكَ! لكنتُ استمتعتُ أكثرَ! لقد كانت صرخةُ موتهِ مميزةً، وألمها كان واضحًا؛ فماذا عن صرختكَ؟ يا ترى كيف ستكونُ؟!».

أسرعَ قاسم يسددُ ضرباتٍ متتاليةٍ، وتراجعَ ليون بخطواتٍ منافسةٍ في السرعةِ، وتلقى بسيفهِ ضرباتِ قاسم التي ازدادت في حدتها وقوتها كل لحظةٍ.

- «لا أستطيعُ أن أظلَّ على هذا النمطِ! يجبُ أن أهاجمَ... ولكن السلاحين ليسا في ذات المستوى».

فكَّرَ ليون وهو يتراجعُ، ولكن الوقتَ لمْ يسمحْ لهُ بالعثورِ على إجابةٍ، بل تركهُ أمامَ معضلةٍ أكبر أتت في اللحظةِ التاليةِ:

أرجحَ قاسم دورندالَ مِن اليمينِ إلى اليسارِ، فتفادى ليون الضربةَ؛ ثم مِن اليسار إلى اليمين، فتراجعَ ليون خطوةً أخرى؛ ثم أتت ضربةٌ مِن السماءِ تجاهَ الأرضِ، فلمْ يستطعْ ليون إلا أن يضعَ سيفهُ في طريقها. ومع تلكَ الضربةِ الأخيرة، أتى ذلك الصوتُ الذي ذعرَ خالد وأحبطَ ليون: تكسَّرَ سيفُ ليون إلى جزئين، فسقطَ طرفُ السيفِ، وظلَّت بقيتهُ مع المقبضِ -سيفًا مكسورًا قصيرًا- في يدِ ليون.

نظرَ قاسم بثقةِ النصرِ، وقالَ مستبعدًا: «لا تقل لي أني سأرى حلقةً أخرى مِن حلقاتِ هروبكَ. هل معكَ كراتُ الدخانِ التي ترميها كلَّ مرةٍ؟ هل ستهربُ مِن أمامي؟».

كانَ الهربُ مِن النزالِ عارًا يلاحقُ صاحبهُ طوالَ الحياةِ، فماذا كان أمامَ ليون؟

شدَّ ليون بقبضتهِ على السيفِ المكسورِ، وقالَ: «لا، لن أهربَ بعد الآن».

- «مرةً أخرى تفاجئني... إذًا، أوصلْ تحيَّاتي إلى الملكِ!».

تقدَّمَ قاسم ورفعَ دورندال، ثم سددهُ تجاهَ ليون، ولكن ليون تحرَّكَ سريعًا، متفاديًا، ثم عادَ قاسم ليحاولَ ثانيةً فتفادى ليون ثانيةً؛ لقد كان دورندال سيفًا ثقيلًا، ومِن النزالِ تمكَّنَ ليون مِن أن يحسبَ تقريبًا الوقتَ الذي احتاجهُ قاسم بعدَ كلِّ ضربةٍ ليسددَ الأخرى، وبعدَ تحطِّمِ سيفهِ، وظَّفَ ليون المعلوماتِ التي جمعها في تفادي الضرباتِ والبحثِ عن فرصةٍ للهجومِ.

وجاءت تلكَ الفرصةُ!

بعدَ أن تفادى ليون ضربةً مِن دورندال، انطلقَ إلى الأمامِ مباشرةً فصارَ أمامَ وجهِ قاسم، فسددَ إليهِ لكمةً شديدةً في الوجهِ.

- «فعلتها الآن أيها الـ——».

سددَ ليون لكمةً أخرى، ولكن اللكماتِ لمْ تُزدْ قاسم إلا غضبًا.

- «يجبُ أن أعثرَ على ثغرةٍ أكبر في تحركاتهِ، إن فعلتُ ذلكَ، لن أحتاجَ لأن ألكمَ بل سيمكنني بهذا السيفِ المكسورِ أن أقتلهُ».

كان ليون يلكمُ بيدهِ اليسرى ويستخدمُ السيفَ المكسورَ بيدهِ اليمنى في صدِّ دورندال، ولكن إن حصلَ على الفرصةِ المناسبةِ، سيفلتُ مِن دورندال وسيستطيعُ غرزَ سيفهِ المكسورِ في الفروقِ بين درعِ قاسم الحديديّ.

- «توقَّف عن الحركةِ!».

ازدادَ غضبُ قاسم، وفي هذا الغضبِ بدأت ضرباتهُ تصيرُ أكثرَ قوةً وأقلَّ اتزانًا.

- *«هذه هي اللحظةُ المناسبةُ!»*.

قالَ ليون الكلمات لنفسهِ، وتقدَّمَ في اللحظةِ المناسبةِ لينهي النزالَ، ولكن...

تفاجأ ليون بدورندال يتحرَّكُ أسرعَ مِن الطبيعيّ ويقتربُ مِن جسدهِ، فإن أصابهُ فقدَ كلَّ الأملِ في النصرِ؛ ولذلك، استدارَ، وبردةِ فعلٍ سريعةٍ وضعَ مقبضَ سيفهِ وما بقي مِن نصلهِ في طريقِ دورندال. هكذا ردَّ ليون الضربةَ، ولكنهُ حينها فقدَ اتزانهُ وسقطَ إلى الوراءِ، فالتوت قدمهُ اليسرى.

لمْ يستطع ليون أن يقومَ مِن مكانهِ، فتراجعَ على الأرضِ، بسيفهِ المكسورِ بيدهِ وبآخرِ آمالهِ في النصرِ تتلاشى، أثناء تقدَّمِ قاسم نحوهُ.

- «هذه نهايةُ اللعبةِ أيها الأمير».

وقفَ قاسم عند رجلي ليون، وغيَّرَ مسكتهُ لدورندال ليصيرَ مستعدًا لطعنِ ليون في صدرهِ.

لقد كان ليون في موقفٍ ميئوسٍ منهُ، ولكنهُ نظرَ إلى أعلى لعلهُ يعثرُ على فرصـــةٍ، وحينها، خطفَ بريقُ دورندال الأخضـــر عينيهِ، وفي لحظةٍ اختفت صورةُ قاسم مِن أمامهِ، ورأى مشهدًا مختلفًا تمامًا؛ أخذهُ بريقُ السيفِ بعيدًا عن السهلِ وشمسِ المغيبِ، بعيدًا عن النزالِ وصياحِ خالد، إلى ظلامٍ لم يرَ فيهِ شيئًا.

- «أريدُ لقاءكَ... متى تأتي؟».

سـمعَ ليون صـوتَ فتاةٍ وسـطَ الظلام، كان صـوتها عذبًا مليئًا بالشـغفِ، وحين اختفى بدأت صورةٌ تتشكلُ في الظلامِ: كان هناك كهفٌ عملاقٌ تسـيلُ المياهُ مِن سـقفهِ إلى بحيرةٍ في الأسـفلِ، وكانت هناكَ جزيرة في وسـطِ البحيرةِ، لا يصـلها بالبرِّ إلا طريقٌ واحدٌ ضـيقٌ. ووسـطَ الجزيرةِ ارتفعت شـجرةٌ عملاقة كالأشـجارِ التي تعيشُ آلافَ السـنين، وحولها انتشـرَ عشـبٌ أخضـر جميلٌ. أما عن الضـوءِ الذي أنار الكهفَ، فكان ضوءَ بلورات وألماس لمعَ بنفسِ خَضَارِ أوراقِ الشجرةِ العملاقةِ.

اقتربَ ليون ببصـرهِ قليلًا قليلًا مِن الجزيرةِ، حتى رأى عليها فتاةً تماثلهُ في العمرِ تجلسُ تحت الشجرةِ. كان لها شعرٌ أخضر يماثلُ في لونهِ ما أحاطَ بها، وكان لونُ عينيها هو لونُ الألماسِ، وارتدت ثوبًا أبيض ناصعًا لونهُ لونُ بشرتها الناعمةِ.

أمالت تلكَ الفتاةُ رأسـها قليلًا، وقالت وهي تنظرُ إلى ليون مباشـرةً: «على هذا المنوالِ لن أراكَ، على هذا المنوالِ سـتسـقطُ هنا ولن تقومَ أبدًا... ولكن لا يمكنني أن أسمحَ بذلكَ إلى أن نتقابلَ».

لمْ يجدْ ليون نفسهُ يسألُ إلا سؤالًا واحدًا، خرجَ كأنما لا تحكُّمَ لهُ في لسانهِ: «لماذا؟».

- «لأني أحبكَ».

اختفى كلُّ ما رآهُ ليون في ضوءٍ عظيمٍ، ورأى أمامهُ دورندال ثانيةً وقد ضربَ الأرضَ بدلًا منهُ؛ وجدَ ليون نفسهُ واقفًا مِن جديد.

صاحَ قاسم: «حركاتُ القردةِ هذه لن تنفعكَ طويلًا!».

لقد تحرَّكَ ليون ودهسَ على قدمهِ التي آلمتهُ... هل كلُّ ما فعلَ كان ردَّ فعلٍ طبيعيٍّ؟ لمْ يعلمْ بالضبطِ؛ فقد كان كمن فقدَ الوعي لحظةً وعادَ مرةً أخرى إلى الحياةِ، ولكنهُ وثقَ أن هذه اللحظةَ كانت فرصةً يجبُ أن يستغلها الآن وهنا، وإلا بطُلت وراحت.

- *«الآن يمكنني!»*.

بفكرةٍ جديدةٍ، وقفَ ليون وسيفهُ المكسورُ بيدهِ. أخرجَ قاسم دورندال مِن الأرضِ، والتفَّ ليسددَ ضربةً أخرى، ولكن ليون تراجعَ خطوةً فنزلَ دورندال تجاهَ الأرضِ، وحينها دهسَ ليون على دورندال العريضِ بقدمهِ اليمنى، وأرغمَ قاسم على الإنحناءِ إلى الأمامِ حتى لا يقعَ دورندال مِن يدهِ، ثم وثبَ مِن على السيفِ ليتجاوزَ جسدَ قاسم العملاق مِن فوق.

- «لن يحدُثَ!».

بكلماتهِ شجَّعَ قاسم نفسهُ، والتفَّ ليقطعَ ليون الواقفَ خلفهُ نصفين، ولكن...

- «*ماذا؟! لا يمكنُ... هل...*».

لمْ يجدْ قاسم ليون، فلمْ يُصِبْ شيئًا، ولكنهُ أحسَّ بأحدٍ خلفهُ.

- «لقد توقَّعَ هجومي وتحرَّكَ عكسي!».

أدركَ قاسم الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان؛ لمْ يستطع الوصولَ إلى ليون في الوقتِ المناسبِ، فكان الآن ليون مواجهًا لظهرِهِ، ولمْ يكنْ هناكَ شكٌّ أن الأميرَ سريعَ الحركةِ سينهي النزالَ، هنا والآن!

قبل أن يتحرَّكَ قاسم حركةً أخرى، غرزَ ليون سيفهُ المكسورَ في ظهرِهِ، تحتَ رقبتهِ مباشرةً؛ فلمْ يلبث على قدميهِ وسقطَ إلى الأمامِ على وجهِهِ.

نظرَ ليون إلى جسدِ قاسم العملاق وقد همدَ على الأرضِ، وتذكَّرَ حين رأى بالحصنِ رأسَ والدهِ الصالح مثبتةً برمح. حتى الآن لمْ يسعدهُ الانتقامُ الذي أرادهُ؛ فحتى الآن لمْ تتغيرْ صورةُ أبيهِ في ذهنهِ، ولمْ يخِفَّ ما حلَّ بعائلتهِ. جاءتهُ فكرةُ أن يأخذَ رأسَ قاسم كما فُعِلَ برأسِ أبيهِ، ولكنهُ تجاهلها فورًا، واكتفى بأخذِ دورندال مِن يدِ قاسم الباردةِ.

ركبَ ليون حصانَ قاسم.

- «حمدًا لله على النصرِ... ولكن هناكَ أمرٌ آخرُ!».

أسرعَ خالد تجاهَ ليون بعدَ أن انتهى النزالُ، وصاحَ بتلك الكلماتِ، ثم أضافَ وهو أمام ليون مباشرةً: «لقد سمعتُ الجنودَ يقولون بأنَّ قاسم أصدرَ أمرًا بحرقِ القريةِ كلها... حتى أنا ومحمد، خطط لقتلنا عندما نُسلمكَ إليهم».

أشارَ ليون إلى جسدِ قاسم وقال: «لن أستطيعَ أن أساعدكما أكثر مما ساعدتُ. خذ الجسدَ وعُدْ إلى مشَّى؛ فقد يعدِلُ الجنودُ عن أفعالهم إن رأوا قائدهم ميّتًا... لا دخلَ لي إن أرادَ أهلُ ديمنتيا قتلَ بعضهم البعض».

أومأ خالد وقادَ الحصانَ الآخرَ إلى حيثُ كانت جثةُ قاسم، فحملها بصعوبةٍ، ووضعها على ظهرِ الحصانِ.

قالَ ليون: «هيَّا؛ طريقكَ طريقي إلى أن نصلَ إلى البوابةِ الشماليةِ».

ضربَ ليون حصانهُ بقدميهِ، وانطلقَ بهِ، يفكِّرُ: «قدمي لا تؤلمني على الإطلاق...».